الإدارة في عصر الرسول ﷺ

الفصل الثاني

إدارة الدعوة الإسلامية حتى قيام الدولة

أولًا : إدارة الدعوة الإسلامية في مكة قبل الهجرة .

ثانيًا : إدارة الدعوة الإسلامية في يثرب قبل الهجرة .

ثالثًا : ملامح الإدارة في الهجرة النبوية .

رابعًا : إجراءات الرسول ﷺ الإدارية في المدينة بعد الهجرة .

obeikan.com

obeikan.com

أولًا : إدارة الدعوة الإسلامية في مكة قبل الهجرة

كان التخطيط لنشر الدعوة الإسلامية « الهدف الأول » لإدارة الدعوة في مكة ، وهذا يستدعي منا السير مع أحداث الدعوة للتعرف إلى خطة الرسول ﷺ في نشر دعوته ، ويمكننا أن نقسم هذه الفترة إلى قسمين ، هما : الدعوة السرية (الفردية) ، والدعوة الجهرية (الجماعية) . ولكل مرحلة من هاتين المرحلتين طبيعتها الإدارية الخاصة بها .

كانت الظروف السائدة في مكة - فترة الدعوة الأولى - تستدعي من النبي ﷺ أن يعرض دعوته على من يثق به من أهله وأصدقائه ، فعرضها أولًا على زوجته خديجة (ت٣ق . هـ) فآمنت به ، ثم عرضها على صاحبه أبي بكر (ت ١٣هـ) فآمن به ، وعلى ابن عمه وربيبه علي بن أبي طالب (ت ٣٩ هـ) فآمن به كذلك [١] . وبهؤلاء الثلاثة بدأت دعوة الإسلام .

ويلاحظ أن ظروف هذه الفترة جعلت النبي ﷺ يتدرج في عرض هذه الدعوة ، ولاسيما أن المعتقدات التي ينادي بها تخالف معتقدات أهل مكة ، فكان لابد من السرية والاستخفاء بالتبليغ ليعد لها أرضًا صلبة تقف عليها [٢] ، ولم يكن هذا الاستخفاء موقفًا سلبيًّا لا حركة فيه ، بل كان موقفًا إيجابيًّا في دوافعه وآثاره ؛ لأنه كان موقف التأسيس والتربية والإعداد وتخير المواد لبناء المجتمع الإسلامي [٣] .

قام النبي ﷺ بناء على ما سبق باختيار دار يختفي فيها - هو وأصحابه - وهي دار الأرقم بن أبي الأرقم (ت ٥٣هـ) . والتي كان منها يدير دعوته ويربي أصحابه ويبتعد بهم عن أذى المشركين .

---

(١) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩) . البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص ٥٨) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص١١٢) . الساعاتي ، أحمد عبد الرحمن البنا ، الفتح الرباني في شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ط١) (١٣٧٥هـ) ، (جـ ٢٠ ، ص٢١٣ ، ٢١٤) .

(٢) انظر تفاصيل ذلك في ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٢٦٢) (ابن إسحاق) ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص١٩٩) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص١١٦) . (الواقدي) . اليعقوبي ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٠٦ - ٣٠٧) .

(٣) محمد الصادق عرجون ، محمد رسول الله ﷺ (ط١) دمشق ، دار القلم (١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥) ، (جـ١ ، ص٥٩٦) .

إن المعلومات المتوافرة في المصادر لا تبين تاريخًا مضبوطًا للوقت الذي اختفى فيه النبي ﷺ وأصحابه في دار الأرقم ، فالروايات في ذلك مضطربة [١] ولكننا نستخلص من خلال هذه الروايات أن ذلك كان في أواخر السنة الثالثة للبعثة ؛ أي في آخر الفترة الأولى من الدعوة في مكة (الفترة السرية) .

وكذلك فإن الروايات مضطربة في مدة الاستخفاء ، فبعض المصادر تجعل هذه المدة شهرًا [٢] . وغالب المصادر [٣] لا تحدد هذه المدة ، وكذلك لا توضح لنا الروايات كيفية هذا الاستخفاء ، هل كان في الليل أم في النهار ؟ ولكنه يُفترض ألَّا يكون اختفاءً تامًّا ؛ لأن ذلك يؤدي إلى مزيد من الشكوك والارتياب في سلوك النبي محمد ﷺ ؛ لأنه من المعروفين المشهورين في الأوساط المكية .

وإذا ما تفحصنا الروايات التي تحدثت عن دار الأرقم ، فيمكننا أن نستخلص الأسباب الكامنة وراء اختيار النبي ﷺ لدار الأرقم مركزًا لدعوته ، فالأرقم ابتداءً لم يكن معروفًا بإسلامه [٤] . فلا يخطر ببال القرشيين أن يتم لقاء محمد ﷺ بأصحابه في داره ، وكذلك فإن الأرقم من بني مخزوم [٥] ، وبنو مخزوم هم الذين يحملون لواء التنافس مع بني هاشم [٦] ، واللقاء في بيت من بيوتهم يعني أن ذلك الاجتماع الخطير يَتم في قلب صفوف العدو . وإذا ما عرفنا أن الأرقم (ت ٥٣هـ) كان عند إسلامه مازال شابًّا صغيرًا لا يجاوز السابعة عشرة من عمره [٧] ، ويوم تفكر قريش بالبحث عن

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ (جـ٢ ، ص٢٤ ، ٢٥) . ابن عبد البر ، الاستيعاب (جـ١ ، ص١٣١) . ابن حجر ، أسد الغابة (جـ١ ، ص٦٠٠) . المقريزي ، إمتاع (ص١٨) . الحلبي ، السيرة (جـ١ ، ص٣١٩) . ابن كثير ، السيرة (جـ١ ، ص٤٤١) . الهندي ، علاء الدين علي المتقي (ت ٩٧٥هـ) ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (ط٢) حيدرأباد ، دائرة المعارف العثمانية (١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨م) (جـ ١٥ ، ص٢٤٠) .

(٢) أحمد الشنتناوي وآخرون ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتناوي وآخرون (١٣٥٢هـ ، ١٩٣٠م) ، (جـ١ ، ص٦٣١) .

(٣) انظر مثلًا : ابن كثير ، السيرة (جـ١ ، ص٤٤١) . الحلبي ، السيرة (جـ١ ، ص٣١٩) . عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة (ط ٥) ، بيروت ، الرسالة ، النفائس (١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) ، (ص ٦٤) .

(٤) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٢٥٣ ، ٣٤٥) (ابن إسحاق) . ابن حجر ، أسد الغابة (جـ١ ، ص٦٠) . المقريزي ، إمتاع (ص١٨ - ٢٠) .

(٥) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٢٥٣) . الشنتناوي ، دائرة المعارف الإسلامية (جـ١ ، ص٦٣١) .

(٦) ابن حجر ، أسد الغابة (جـ١ ، ص٦٠) . الهندي ، كنز العمال (جـ١٥ ، ص٢٤١) . الزركلي ، الأعلام (جـ١ ، ص٢٨٨) .

(٧) انظر تفاصيل هذا التنافس في : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣١٦) . الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان ، =

محمد وأصحابه فلن تبحث عنه في بيوت الشباب الصغار ، بل تتجه إلى بيوت كبار الصحابة أو في بيت رسول اللّه ﷺ نفسه [١] ، أضف إلى ذلك أن دار الأرقم كانت في مكانها تُعَدُّ آمنة إلى حد بعيد ، فقد ذكر ابن سعد (٢٣٠هـ) أن دار الأرقم كانت قريبة من الصفا ؛ أي أنها مقابل دار الندوة [٢] . وهذا يبعد الشك عنها ؛ إذ لا يمكنهم أن يفكروا بأن محمدًا يجلس بأصحابه في دار قريبة منهم ؛ ولهذا فلم نسمع أبدًا أن قريشًا داهمت هذا المكان وكشفت مكان اللقاء ، إنما كان أقصى ما وصلت إليه هو شكها أن يكون اللقاء عند الصفا ، فقد قال الرجل لعمر بن الخطاب (ت٢٣هـ) عندما أراد أن يسلم : « اذهب إلى محمد في دار عند الصفا » [٣] .

كان من آثار الدعوة السرية أنها تمكنت من السير إلى القلوب والعقول لأعداد مميزة من فتيان قريش [٤] وذوي بيوتاتها [٥] والوافدين عليها من غير أهلها [٦] .

ويلاحظ أنه في هذه المرحلة لم يقع أي صدام بين هؤلاء المؤمنين وبين أهل مكة ، بل إن المؤمنين كانوا لا يتدخلون في أي شأن من شؤون غيرهم في نقد أو مواجهة ؛ إذ لابد من المحافظة على السرية التامة للدعوة وأتباعها [٧] .

= (ت٧٤٨) ، السيرة النبوية ، تحقيق حسام الدين القدسي ، بيروت ، دار الهلال (١٩٢٧م) ، (ص٩٣ ، ٩٤) . ابن سيد الناس ، فتح الدين بن محمد بن محمد (ت٧٣٤هـ) ، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (ط١) بيروت ، دار الآفاق (١٩٧٧م) ، (جـ١ ، ص١٤٠) .

(١) توفي الأرقم سنة (٥٣هـ) وقيل (٥٥هـ) ، وهو ابن ثلاث وثمانين سنة ، وأسلم الأرقم في أوائل البعثة ، فيكون عمره يوم إسلامه سبع عشْرةَ سنةً . انظر : ابن حجر ، أسد الغابة (جـ١ ، ص٦٠) . الهندي ، كنز العمال ، (جـ١٥ ، ص٢٤٠) . الشنتناوي ، دائرة المعارف (جـ١ ، ص ٦٣) ، قال : « أسلم وهو حدث » . الزركلي ، الأعلام (جـ١ ، ص٢٨٨) .

(٢) منير محمد الغضبان ، المنهج الحركي للسيرة النبوية (ط١) الزرقاء ، مكتبة المنار (١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م) ، (ص٤٩) .

(٣) ابن سعد ، الطبقات (جـ٣ ، ص٢٤٣) .

(٤) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص١٤٥) . وانظر : ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٠٣) . ابن سيد الناس ، عيون الأثر (جـ١ ، ص١٥٣) . الهندي ، كنز العمال (جـ١٥ ، ص٢٤١) .

(٥) أمثال : علي بن أبي طالب ، ومصعب بن عمير ، الأرقم بن أبي الأرقم ، انظر : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٢٥٣) . ابن حجر ، أسد الغابة (جـ١ ، ص٦٠) .

(٦) أمثال : أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب ، انظر : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٩١ ، ٣٤٢) ، والبخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص ٦٠) . الساعاتي ، الفتح الرباني (جـ٢٠ ، ص٢٣٢) .

(٧) أمثال : أبو ذر الغفاري ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي . انظر : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص ٢٦١ ، ٣١٧) . البخاري ، الصحيح (جـ٤ ، ص٢٢١ ، ٢٢٢) ، (جـ٥ ، ص٥٩) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص ١٥٧) (هشام ابن الكلبي) . ابن الأثير (جـ٢ ، ص٥٩ ، ٦٠) .

وبعد ثلاثة أعوام [١] من الدعوة السرية (الفردية) أمر اللَّه ﷻ نبيه فقال : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] [٢] وبذلك بدأت الدعوة في مكة مرحلة جديدة هي مرحلة الدعوة الجهرية (الجماعية) .

اختار النبي ﷺ للدخول في هذه المرحلة – مكانًا خاصًّا وكلمات خاصة يخاطب بها أهل مكة ، فوقف النبي ﷺ عند الصفا ، وهو مكان يجتمع فيه المكيون بشكل كبير ، ونادى بأعلى صوته : (واصباحاه) [٣] ، ويلاحظ أن هذه الكلمة التي افتتح بها النبي دعوته لأهل مكة هي كلمة تسترعي الانتباه ، فهو يعني أن هذا الصباح ليس ككل الصباحات ، بل إنه صباح له وجه خاص .

وتشير المصادر إلى أن النبي ﷺ مرَّ بسوق عكاظ وعليه جبة حمراء وهو يقول : « **أيها الناس ! قولوا لا إله إلا اللَّه تفلحوا وتنجحوا** » ، وكان يتبعه أبو لهب (ت٢هـ) يكذِّبه [٤] ، فكان لابد للنبي أن يلين في دعوته إلى أبعد الحدود ، فرأى النبي ﷺ أن يجمع بني عبد المطلب على طعام يصنعه لهم حتى أكلوا فشبعوا دعاهم إلى الإسلام [٥] .

أدرك النبي ﷺ أن دعوته بدأت تدخل مرحلة حرجة تستدعي مزيدًا من الصبر وضبط النفس ، ولابد من اتخاذ كل الوسائل للحفاظ على علاقة الود بينه وبين قومه ، ولكن قريشًا شعرت أن الدعوة الجديدة تعني إحداث تغير كامل في بنية التنظيمات القائمة ، وإحداث خلخلة كاملة لكل معتقدات قريش وموروثاتها الدينية والاجتماعية والإدارية .

---

(١) عرجون ، محمد رسول اللَّه (جـ١ ، ص٥٩٧) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٢٦٢) (ابن إسحاق) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص١٩٩) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص١٦٦) (كلاهما عن الواقدي) . اليعقوبي ، تاريخ (جـ٢ ، ص٢٤) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣١٨) .

(٣) ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق يسار (ت ١٥١هـ) ، كتاب المغازي ، تحقيق محمد حميد اللَّه ، تركيا ، (١٤٠١هـ ، ١٩٨٦م) ، (ص١٥٦) . ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٢٦٢ ، ٢٦٣) ، (ابن إسحاق) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص١١٨) . اليعقوبي ، تاريخ (جـ٢ ، ص٢٥) . الطبري ، تاريخ (جـ١ ، ص٣١٩) (ابن عباس) . البيهقي ، أبو بكر أحمد بن حسين (٤٥٨) السنن الكبرى (ط١) حيدر أباد ، المطبعة العثمانية (١٣٥٤) ، (جـ٩ ، ص٦) (عائشة) .

(٤) ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٠٠) (الواقدي) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص١٢١) . الطبري ، تاريخ (ص ٣١٩) (ابن عباس) . البيهقي ، السنن (جـ٩ ، ص٧) . الساعاتي ، الفتح الرباني (جـ٢٠ ، ص٢١٩) .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ (جـ٢ ، ص٢٥) . وانظر : الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٢١) (أبو عوانة) . الساعاتي ، الفتح الرباني (جـ٢٠ ، ص٢٦٥) .

تذكر المصادر أن قريشًا حاولت بشكل ما وبصورة حازمة أن تقف أمام هذا التغير الذي يدعو إليه محمد ﷺ وذلك بكل ما أوتيت من قوة [١] ، ويشير ابن سعد (ت٢٣٠هـ) إلى محاولة مبكرة من زعماء قريش لإيقاف دعوة النبي باغتياله والتخلص من الدعوة والداعية فيقول : « فقالوا : وما خير من أن يغتال محمد [٢] ولكن أبا طالب وقف بحزم تجاه هذه المحاولة المكية ، إذ جمع فتيان بني هاشم وبني المطلب ثم طلب منهم أن يتسلح كل منهم بحديدة صارمة ثم قال لأهل مكة : واللّه لو قتلتموه ما بقّيتُ منكم أحدًا حتى نتفانى نحن وأنتم ، فانكسر القوم » [٣] . ويبدو أن هذا الحزم من قبل أبي طالب (ت٣ق .هـ) جعل أهل مكة – بعد ذلك – يفكرون ألف مرة قبل أن يقدموا على قتل النبي ﷺ .

كانت خطة النبي ﷺ في هذه المرحلة ألّا يصطدم أصحابه مع مشركي مكة ، ونزلت الآية القرآنية تؤيد هذا الاتجاه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء: ٧٧] [٤] . وربما كانت الحكمة في ذلك أن هذه الفترة كانت فترة تربية وإعداد ومحاولة تربية نفس العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو من يلوذ به ، وكذلك فإن الدعوة السليمة كانت أشد أثرًا في مثل بيئة قريش . والتي قد يدفعها القتال إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة وتجنب إحداث مذبحة ومقتلة في داخل كل بيت ؛ إذ لم تكن هناك سلطة نظامية تعذب المؤمنين وتفتنهم ، إنما كان ذلك موكولًا إلى أولياء أمورهم ، وإذا ما عرفنا أن النخوة العربية في بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يتحمل الأذى ولا يتراجع ، وأن أعداد المسلمين حينذاك كانت قليلة ، وانحصارهم في مكة يعني أن الصدام يؤدي

---

(١) ابن إسحاق ، المغازي ، (ص١٢٦ ، ١٢٧) . اليعقوبي ، تاريخ (جـ٢ ، ص٢٨) . الطبري ، تاريخ (جـ٢، ص٣٢٠) (ابن إسحاق) . الساعاتي ، الفتح الرباني (جـ٢ ، ص٢٢٣ ، ٢٢٤) (علي بن أبي طالب) .

(٢) انظر تفاصيل هذه المقاومة في : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٢٦٨ ، ٢٦٩) (ابن إسحاق) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٠١) . البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٥٨) . النووي ، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف (٦٧٦هـ) ، شرح صحيح مسلم (ط٣) بيروت ، دار إحياء التراث العربي (١٤٠٤هـ) ، (١٩٨٤م) ، (جـ١٢ ، ص١٥١ ، ١٥٢) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص١٢٢ – ١٥٨) (الواقدي) ، (جـ١، ص١٣٠) (قالوا) (جـ١ ، ص١٥٨) (مجاهد) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٢٢٣ – ٣٢٣ ، ٣٢٤) (السُدي) .

(٣) ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٣٠١ – ٣٠٣) .

(٤) م ، ن (جـ١ ، ص٢٠١ ، ٢٠٢) .

إلى إفناء الجماعة [١] المسلمة والقضاء عليها ، عندها نعلم كم كانت هذه الخطة ناجحة في تجنب الوقوع في مثل هذه الإرباكات لدعوة ما زالت وليدة لم تعمق جذورها في الأرض ولم تخرج فروعها في السماء .

لقد تعرض المؤمنون لأشد أنواع الابتلاء والأذى ، وكان ذلك مدعاة إلى أن يشكوا أمرهم إلى رسول اللّه غير مرة ، فيروي لنا البخاري (ت٢٥٦هـ) شكوى خباب بن الأرت (ت ٣٧هـ) [٢] ، ويروي لنا النَّسائي (ت ٣٠٣هـ) بعض هذه الشكاوى حين قال هؤلاء لرسول اللّه : « إنَّا كنَّا في عز ونحن مشركون ، فلما آمنَّا صِرنا أذلة ، فقال : إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا » [٣] .

لقد كانت المعارضة المكية تصدر - في غالبها - عن أناس كانوا يتنافسون دائمًا مع بني هاشم على الوظائف الإدارية في مكة ؛ ولم تكن تصدر عن عقيدة واقتناع ، وإلى ذلك دل قول أبي جهل (ت٢هـ) الذي يرويه ابن إسحاق (ت١٥١هـ) : « قال : تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا [٤] على الركب ، وكنَّا كفرسَيْ رِهان قالوا : منَّا نبي يأتيه الوحي من السماء ، متى ندرك مثل ذلك ؟ واللّه لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه » [٥] .

ضاقت مكة بدعوة النبي ﷺ ، واشتد الأمر على المستنصفين من المؤمنين [٦] فتحرك النبي ﷺ لحماية أصحابه في عدة محاور ، فوجه بعض الأغنياء من الصحابة لشراء بعض هؤلاء العبيد المستضعفين وإعتاقهم ، وبالفعل فقد أعتق أبو بكر الصديق (ت١٣هـ) وحدَه سبعة من هؤلاء [٧] ، وكانت هناك محاولات لحماية المؤمنين عن طريق دخولهم

(١) انظر : الزمخشري ، الكشاف (جـ١ ، ص٥٤٣) . الطبري ، تفسير (جـ٨ ، ص٥٤٩) . القرطبي ، الأحكام (جـ٥ ، ص٢٨١) . السيوطي ، الدر المنثور (جـ٢ ، ص٥٩٤) .

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، د . ت (جـ١٢ ، ص٤٥٢ - ٤٥٤) .

(٣) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٥٦ ، ٥٧) . وانظر : البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص١٧٦) (الواقدي) .

(٤) النَّسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت٣٠٣هـ) السنن ، شرح الحافظ جلال الدين السيوطي (ط١) تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، حلب مكتبة المطبوعات الإسلامية ، (١٩٨٦م) ، (جـ٦ ، ص٣) .

(٥) تحاذينا : يحاذي : أقعى ، وربما جعلوا الجاذي والحاذي سواء ، وقد تكون الكلمة (تحاذينا) بالحاء المهملة ، وهو تصحيف ، ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣١٦) .

(٦) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣١٦) . وانظر : الذهبي ، السيرة (ص٩٣ ، ٩٤) ، ابن سيد الناس ، عيون الأثر (جـ١ ، ص١٤٠) .

(٧) انظر تفاصيل اضطهاد المشركين لضعاف المسلمين في : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣١٧ - ٣٢١) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٠٣) . (الزهري) . البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٥٦) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، =

في جوار بعض زعماء المشركين ، فدخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة ، ودخل أبو بكر في جوار ابن الدغنة ثم رده عليه [١] ، ولكن الإجراء الكبير الذي قام به النبي ﷺ لحماية أصحابه هو أن يهاجروا إلى الحبشة (٨ق .هـ) [٢] وكانت هذه الهجرة دليلًا قاطعًا على دقة تخطيط النبي وإدارته لدعوته بنجاح ، فهو عليه السلام يدرس الموقف جيدًا ويعلم أن الحبشة فيها ملك لا يظلم [٣] .

ويبدو أن هذه الخطوة قد آتت أكلها في خلخلة الصف المكي ، فقد أحدثت هزة عنيفة في أوساط البيوت الكبيرة من قريش وهم يرون أبناءهم الكرام يهاجرون بعقيدتهم من مكة في بيئة قبلية تهزها هذه الأمور هزًّا عنيفًا [٤] .

ولعلنا ندرك أيضًا المعنى الآخر الذي أراده النبي ﷺ في كسب تأييد النجاشي المعنوي لهؤلاء النفر فكتب كتابًا إلى النجاشي يقول فيه : « ... **وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين جاؤوك فأقرهم ....** » [٥]

أما الجانب الإعلامي لهذه الخطوة فقد كان مقصودًا ، فقد جعل القبائل في مكة وخارجها تحاول أن تتعرف إلى هذا الدين الجديد الذي يدفع أصحابه إلى الهجرة مما أخرج الدعوة من إطارها المحلي إلى إطار أوسع يشمل الجزيرة العربية كلها .

ويفترض أن تكون مكة قد شعرت بخطر هذا على سيادة قريش وسمعتها مما جعلها

= ص٣٢٨ ، ٣٢٩) (عروة بن الزبير) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص٦٦ - ٧٣) . ابن عبد البر ، نظم الدرر (ص٥٠) . الساعاتي ، الفتح الرباني (جـ٢٠ ، ص٢٢٠) ، (جـ٢٠ ، ص٢٢٢) .

(١) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣١٧ - ٣١٩) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣٧٠ - ٣٧٣) (الزهري) .

(٣) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣٢١ ، ٣٢٢) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٠٣ ، ٢٠٤) . البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٦٤) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص١٩٨ ، ١٩٩) . ابن حبان ، أبو حاتم محمد بن حيان ابن أحمد التميمي (ت ٣٥٤هـ) ، كتاب الثقات ، (ط١) ، حيدر أباد ، المطبعة العثمانية ، (١٣٩٧هـ) ، (جـ١، ص٥٧ ، ٥٨) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٢٨ ، ٣٢٩) (عروة بن الزبير) . الزرقاني ، محمد بن عبد الباقي (ت ١١٢٢هـ) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ط١) القاهرة ، المطبعة الأزهرية (١٣٢٨هـ)، (جـ١ ، ص٢٧١) .

(٤) قال النبي ﷺ : « **إن فيها ملكًا لا يظلم أحدٌ عنده** » . انظر : الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٢٨) (عروة بن الزبير) . البيهقي ، السنن (جـ ، ص٩) .

(٥) انظر تفاصيل ذلك في : ابن هشام ، السيرة (م٢ ، ص٣٢٢) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٠٥ ، ٢٠٦) (الواقدي) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٣٤) ، (جـ٢ ، ص٢٣٥) . ابن الأثير ، الكامل ، (جـ٢ ، ص٨٤) . الساعاتي ، الفتح الرباني (جـ ٢ ، ص٢٢٦) .

تسارع في إرسال وفد يحمل الهدايا إلى النجاشي لرد هؤلاء الخارجين على أعراف قومهم [١] ولكن حجة المسلمين كانت أقوى من حجة الوفد القرشي ، فلم تفلح سفارة قريش في ردهم ، وتحققت فراسة النبي ﷺ : « **إن فيها ملكًا لا يظلم** » [٢] .

وكان هذا الفشل على الصعيد السياسي والإعلامي الذي لحق بقريش قد جعلها تفكر بطريقة أكثر شراسة تجاه المسلمين المتبقين في مكة ، فاجتمعوا على مقاطعة النبي ﷺ والمؤمنين وكتبوا بذلك صحيفة (٦ق . هـ) وضعوها في جوف الكعبة [٣] ، وبالفعل استمر الحصار على المسلمين ثلاث سنوات كاملة جعل النبي ﷺ يتحرك على جميع الأصعدة لفك الحصار عن المؤمنين ، فحاول ابتداءً تحريك عاطفة القرابة والرحم عند بعض المكيين لإبطال هذا الطوق الذي فرضته مكة ، واستطاع أن ينجح في ذلك ، بأن وقف بعض وجهاء مكة أمام أبي جهل (ت٢ هـ) ودعا هؤلاء أهل مكة إلى نقض الصحيفة ، ولم يستطع أبو جهل أن يقف أمام رغباتهم ، ولعل دقة التخطيط واختيار هذه الوجوه الفاعلة في مكة كان له أثر كبير في نجاح الخطة مما جعل أبو جهل يصف ذلك بقوله : « إن هذا أمر قضي بليل » [٤] .

تابع النبي ﷺ دعوته عارضًا ذلك على القبائل في المواسم [٥] ، ولم يكن هذا العرض بطريقة عشوائية ؛ بل كان بعد دراسة متأنية وفاحصة لأمر كل قبيلة ومدى مؤهلاتها ، فكان النبي ﷺ يذهب إلى القبائل ومعه أبو بكر الصديق (ت١٣هـ) فيقول : « **ممن القوم** ؟ فيقولون : من بني فلان » . ويبدو أن هذا السؤال كان يقصد به

---

(١) البيهقي ، دلائل (جـ٢ ، ص٢٠٩) . القلقشندي ، صبح الأعشى (جـ٦ ، ص٣٧٩) ، محمد عبد الله الحيدر أبادي ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، بيروت ، دار النفائس ، (١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م) ، (ص٤٣) .

(٢) انظر : سفارة عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد إلى النجاشي ملك الحبشة في : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣٣٣) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٣٢) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٣٠) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢، ص٧٩) . الساعاتي ، الفتح الرباني (جـ٢٠ ، ص٢٢٥) .

(٣) ابن هشام ، السيرة (جـ١ ، ص٣٣٧ ، ٣٣٨) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص٨٠ ، ٨١) .

(٤) ابن إسحاق ، المغازي (ص١٤٠ ، ١٤١) . ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣٥٠ ، ٣٥١) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٠٨ - ٢١٠) ، (الواقدي) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٢٩ ، ٢٣٠) ، (الواقدي) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٣٥ ، ٣٣٦) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص٨٧ - ٩٠) .

(٥) انظر : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٣٧٥ ، ٣٧٦) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢١٠) . البلاذري ، أنساب (جـ١١ ، ص٢٣٥ ، ٢٣٦) . (الواقدي) .

التعرف إلى القبيلة وعددها ومدى قدرتها على مجابهة قريش والخروج على سلطانها [١] ؛ لذلك فإن النبي ﷺ سأل إحدى القبائل فقالوا : نحن بنو شيبان . فقال أبو بكر : « أليس بعد هؤلاء عز في قومهم » [٢] فسألهم النبي ﷺ : « **كيف العدد فيكم ؟** » . فقالوا : نزيد على الألف وما تُغلب ألف من قلة . قال : « **فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟** » . فقالوا : مرة يُدال لنا ، ومرة يُدال علينا ، والنصر من عند اللّه » [٣] .

وبعدما رأى النبي ﷺ وأحس من قومه الصدود ، وبعد دراسة أحوال القبائل جميعًا رأى أن أقوى القبائل العربية وأعزها بعد قريش [٤] . هي قبائل الطائف (ثقيف وهوازن) وهاتان القبيلتان تحملان لواء التنافس مع قريش ، وقامت بينهما حروب كثيرة نتيجة لذلك ؛ ففكر النبي ﷺ بالخروج إلى الطائف [٥] ، ويلاحظ في هذا الخروج أن النبي ﷺ يفكر لأول مرة في نشر الدعوة خارج مكة ، وتغير مركز الانطلاق ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضًا بعدما ضرب النبي ﷺ في الطائف وأغروا به سفهاؤهم وعبيدهم [٦] .

ولمَّا أراد اللّه أن يظهر دينه خرج النبي ﷺ يعرض دعوته على القبائل - كما كان يفعل - فعرض له نفر من الخزرج فدعاهم ، وكان هؤلاء يسمعون من اليهود جيرانهم أنه قد أظلهم زمان نبي ، فلما سمعوا منه قالوا : « لا يسبقكم إليه يهود » ثم قالوا لرسول اللّه ﷺ : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم اللّه بك » [٧] . وفي العام القابل قدم اثنا عشر رجلًا من أهل يثرب فبايعوا

---

(١) ابن إسحاق ، المغازي (ص٢١٥ - ٢١٩) . ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٢٢ - ٤٢٥) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢١٦) ، (الزهري) . أبو البقاء ، المناقب المزيدية (ص٤١٧ - ٤١٩) .

(٢) أبو البقاء ، المناقب المزيدية (ص٤١٧ - ٤١٩) .

(٣) م ، ن (ص ٤١٩ ، ٤٢٠) .

(٤) م ، ن (ص ٤١٩ ، ٤٢٠) .

(٥) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص ٤١٩ - ٤٢١) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢١٢) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٣٧) (قالوا) . النووي ، شرح صحيح مسلم (جـ١٢ ، ص ٥٥) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص ٣٤٤، ٣٤٥) (ابن إسحاق) .

(٦) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٢١) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢١٢) ، (الواقدي) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٣٧) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٤٥) (ابن إسحاق) . الساعاتي ، الفتح (جـ٢٠ ، ص٢٤٣) .

(٧) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٢٨ ، ٤٢٩) . وانظر ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢١٨) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٣٩) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٥٤) (ابن إسحاق) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص٩٥ ، ٩٦) .

رسول اللّه ﷺ بيعة العقبة الأولى التي سميت بـ « بيعة النساء » [١] ، ويشير ابن إسحاق (ت١٥١هـ) إلى أن النبي ﷺ بعث مصعب بن عمير (ت ٣هـ) وأمره أن يعلمهم القرآن ، فكان يسمى « المقرئ » [٢] . في حين يشير ابن سعد (٢٣٠هـ) إلى أن الأنصار كتبوا إلى رسول اللّه كتابًا « ابعث إلينا رجلًا يفقهنا في الدين ويقرئنا القرآن » [٣] . وبذلك بدأت مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية .

* * *

obeikan.com

(١) بيعة النساء . ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ ﴾ [الممتحنة : ١٢] انظر : البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٧٠) . ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٣٣) . ابن سعد ، الطبقات ، (حـ١ ، ص٢٢٠) . البلاذري ، أنساب ، (جـ١ ، ص ٢٣٩) (قالوا) . الطبري ، تاريخ (جـ١ ، ص٣٠٦) (ابن إسحاق) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٣٠) . الطبري ، تاريخ (جـ١ ، ص٣٥٧) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص٩٦) .

(٣) ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٢٠) . انظر : البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٣٩) (قالوا) .

ثانيًا : إدارة الدعوة الإسلامية في يثرب قبل الهجرة

قام مصعب بن عمير (ت٣هـ) بمهمة عظيمة في يثرب ، فكان عليه أن يطلع على أحوالها عن قرب ، ويتعرف إلى طبيعة أهلها وحقيقة شعورهم تجاه الدعوة ورسولها وليعطي صورة صادقة لهذا البلد الذي توجهت إليه أنظار الرسول ﷺ ؛ ليكون منطلقًا للدولة الإسلامية ، وليخرج الرسول ﷺ بتقدير صحيح ويتصرف على أساسه بسرعة ودقة ، وحتى لا يتكرر الموقف الذي واجه الرسول ﷺ في الطائف [١] .

لقد كانت دعوة مصعب بن عمير (ت٣هـ) بالمقرئ [٢] . تفيد أن هناك توجهًا جديدًا في الرئاسة لتنظيم الدعوة الإسلامية بعيدًا عن القبيلة وأعرافها .

فكان هذا المقرئ يتولى دعوة الناس إلى الإسلام وتعليمهم أحكامه ، أضف إلى ذلك إمامتَه المؤمنين في الصلاة ، وبذلك غدت يثرب - بفضل هذا الرئيس المقرئ - تشهد طلائع تنظيم إداري جديد يقوم على أساس الدين بمفاهيمه الجديدة .

وكان النبي ﷺ على اتصال مباشر مع مصعب . وتشير الروايات أن مصعبًا كتب كتابًا إلى النبي ﷺ يستشيره في أن يجمع بهم بعد أن دخل الإسلام إلى كل بيت من بيوت الأنصار [٣] ، فرد النبي ﷺ على كتاب مصعب بقوله : « **أما بعد ، فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم ، فاجمعوا نساءكم وأبنائكم ، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى اللّه بركعتين** » [٤] . ويلاحظ أن ذكر اليهود هنا كان يعني أن الدعوة بدأت مرحلة جديدة من التحدي وإثبات الوجود ، ولاسيما في

---

(١) العدوي ، نظم (ص١٠٧) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٣٤ ، ٤٣٥) (ابن إسحاق) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٥٧) (ابن إسحاق) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص٩٦) .

(٣) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٣٧) .

(٤) الصنعاني ، أبو بكر عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ) المصنف ، تحقيق حبيب اللّه الرحمن الأعظمي (ط١) ، (١٣٩٠هـ ، ١٩٧١م) ، (جـ٣ ، ص١٦٠) (رقم الحديث ١٥٤٦) . وانظر : ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٢٠) . حميد اللّه ، مجموعة الوثائق (ص٥٣) . الأحمدي ، علي بن حسين بن علي ، مكاتيب الرسول ، بيروت ، دار صعب ، د . ت (جـ١ ، ص٢٣٩) ، المقصود صلاة الجمعة .

يثرب التي يكثر فيها اليهود ولهم دور كبير في خلخلة أمنها واستقرارها .

لقد مكث مصعب في يثرب عامًا واحدًا استطاع خلاله أن يوجد قاعدة صلبة للدين الجديد ، تمثل ذلك في عدد المؤمنين الذين جاؤوا إلى الموسم في مكة للالتقاء مع رسول اللَّه ﷺ ويبايعوه البيعة الثانية والتي سميت « بيعة العقبة الثانية » [١] .

لقد كان أمر التهيئة لمباحثات البيعة قد تم بتخطيط دقيق وفيها تم تحديد معالم الدولة الجديدة وقيادتها ، فقد تحرك الوفد اليثربي إلى مكة بسرِّيةٍ تامة ، فلم يكن أحد من قومهم يعلم بهدف خروجهم ، ولما وصلوا مكة « تواعدوا مع رسول اللَّه ﷺ في أواسط أيام التشريق في منى » [٢] ، وكان التخطيط النبوي يقتضي أن يخرج هؤلاء لموعد اللقاء خروجًا منظمًا . يقول كعب بن مالك (ت٥٠هـ) : « حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول اللَّه ﷺ نتسلل تسلُّل القطا » [٣] . ويشير ابن سعد (ت٢٣٠هـ) إلى ذلك بقوله : « فخرج القوم يتسللون الرجل والرجلان وقد سبقهم رسول اللَّه ﷺ » [٤] . وكانت الخطوة التالية من التخطيط المحكَم كما يشير المقريزي (ت ٨٤٥هـ) هو تأمين مكان الاجتماع بالحراسة اليقظة ، فقال : وجاءهم رسول اللَّه ﷺ والعباس ... فأوقف العباس (ت٣٢هـ) عليًّا على فم الشعب عينًا له وأوقف أبا بكر (ت١٣هـ) على فم الطريق الآخر عينًا له [٥] . فلم يعلم أحد من الصحابة بهذا اللقاء السري إلا من كان له مهمة خاصة من الحراسة والمراقبة وهما علي وأبو بكر رضي الله عنهما .

وهكذا ؛ فقد تم اللقاء بين الأنصار وبين رسول اللَّه بنجاح كامل وبايع النبي ﷺ أصحابه من الأنصار ، ثم قال لهم النبي ﷺ : « **إن موسى أخذ من بني إسرائيل**

---

(١) كانت هذه البيعة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمكره والمنشط وعدم منازعة الأمر أهله ، وأن يقول بالحق ، وعدم الخوف في اللَّه لومة لائم » . انظر : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص ٤٥٤) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص ٣٥٤) (الواقدي) . ابن حبان ، كتاب الثقات (جـ ١، ص ١١١ ، ١١٢) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص ٤٤٠) (ابن إسحاق) . وانظر : البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص ٣٦٩) (ابن إسحاق) . الساعاتي ، الفتح الرباني (جـ٢٠ ، ص ٢٧٢) .

(٣) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص ٤٤١) (ابن إسحاق) ، وانظر . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص ٣٦٢) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص ٩٨) .

(٤) ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص ٢٢١) . وانظر : البيهقي ، سنن (جـ٩ ، ص٩) .

(٥) المقريزي ، إمتاع (جـ١ ، ص ٣٥) .

اثني عشر نقيبًا فأخرجوا لي منكم اثني عشر نقيبًا » [١] . ولكن ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) يروي رواية أخرى تشير إلى أن النبي ﷺ هو الذي اختار النقباء وقال لهم : « **فلا يجدن منكم أحد في نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لي جبريل** عليه السلام » [٢] . ويؤيد هذا الرأي ما أشار إليه مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) بقوله : « كنت أعجب كيف جاء من قبيلة رجل ، ومن قبيلة رجلان حتى حدثني شيخ من الأنصار أن جبريل كان يشير إليهم يوم البيعة » [٣] . ولكن يلاحظ من خلال استعراض أسماء هؤلاء النقباء أنهم كانوا من المنظور إليهم في أقوامهم ولهم مكانة اجتماعية مميزة ، وذلك كان ضروريًا لتقتنع هذه القبائل بهم ، ومن خلال نظام النقباء الذي أحدثه النبي ﷺ استطاع أن يحافظ على التقسيمات القبلية للبطون والأفخاذ في المدينة ويسخرها في نفس الوقت لخدمة النظام الجديد .

لقد تم اختيار النقباء ، وكان هذا أول تنظيم إداري عملي حدد النبي ﷺ فيه مسؤولية هؤلاء النقباء ووضع لهم نظامًا خاصًا في الاتصال والحركة بوصفهم نواةً للمجتمع الجديد ، فقال لهم : « **أنتم كفلاء على قومكم** » [٤] . وهذه الكفالة كانت توجب على هؤلاء أن يحافظوا على انضباط قومهم والتزامهم بمبادئ الدين الجديد ولم يعف النبي ﷺ نفسه من المسؤولية فقال : « **وأنا كفيل على قومي** » [٥] وينتظر أن يكون هؤلاء النقباء هم رجال النظام الإداري للدولة القادمة ، ووصل هذا النظام إلى درجة دقيقة من الدقة واتباع التسلسل الهرمي في المسؤولية بحيث جعل النبي ﷺ « أسعد بن زرارة (ت١هـ) نقيبًا للنقباء » [٦] . وكانت مهمة أسعد تصل أحيانًا إلى أن يفوض عن النبي ﷺ في حالة غيابه ، فيروي البلاذري (ت٢٧٩هـ) : « أن سليط بن قيس (ت ١٣هـ) حضر يوم

---

(١) إشارة إلى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة : ١٢] . وانظر : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٤٣ ، ٤٤٤) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٥٣) (الواقدي) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٦٢) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص٩٩) .

(٢) ابن سعد ، الطبقات (جـ٢ ، ص٢٢٢ ، ٢٢٣) .

(٣) الذهبي ، السيرة (ص٢٠٧) . ويرى سرجنت « أن عدد النقباء اثنا عشر هو مجرد مصادفة وليس مخططًا » . انظر :

Sarjeant, Constitution of Medina, Islamic Guar lerly, London, 1978, Part 1, p.p. 10.

(٤) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٤٣ - ٤٤٤) . وانظر : ابن سعد ، الطبقات ، (جـ١ ، ص٢٢٢ ، ٢٢٣) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٥٣) (الواقدي) .

(٥) الأجزاء والصفحات نفسها .

(٦) ابن سعد ، الطبقات (جـ٣ ، ص٦٠٣) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٥٣) (الواقدي) .

العقبة ليبايع فوجد الناس قد تفرقوا فبايع أسعد بن زرارة (ت١هـ) نقيب النقباء ، وحضر مالك بن الدخشم وقد تفرق الناس فبايع أسعد أيضًا » [١] .

وعندما نقارن قائمة النقباء بالقبائل المذكورة أسماؤها في وثيقة الحلف يتضح أن كل قبيلة من قبائل الخزرج كان يمثلها نقيب أو اثنان ، وأن ثلاثة نقباء كانوا يمثلون الأوس ، وهذا العدد يتناسب مع عدد كل من القبيلتين الكبيرتين الذين حضروا البيعة مع رسول اللَّه ﷺ .

ويفترض أن تكون مهمة هؤلاء النقباء قد استمرت بعد الهجرة . ويذكر الحاكم (ت٤٠٥هـ) « أنه لما مات أسعد بن زرارة (سنة ١هـ) نقيب بني النجار جاء قومه إلى النبي ﷺ ، فقالوا : مات نقيبنا فَنَقِّب علينا ، فقال رسول اللَّه ﷺ « **أنا نقيبكم** » [٢] ولم تشر المصادر إلى أن النبي ﷺ قد عين نقباء جددًا بدل أولئك الذين ماتوا أو استشهدوا في بدر (٢هـ) وأحد (٣هـ) والخندق (٥هـ) [٣] .

ويبدو أن هذه القبائل كانت تعين نقباءها بنفسها ، وأما (بنو النجار) فقد جاءوا إلى رسول اللَّه ﷺ ؛ لأنهم أخواله ، ولهذا فقد قال لهم : « **أنتم أخوالي ، وأنا نقيبكم** » [٤] فكانت هذه فضيلة لبني النجار .

لقد آتى التنظيم المبكر للجماعة الإسلامية أكله في إعداد العدة لتهيئة الظروف المناسبة لهجرة النبي وأصحابه إلى يثرب ، وبهذه الهجرة انتقلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة جديدة من التنظيم الإداري والسياسي .

* * *

---

(١) البلاذري ، أنساب ، (جـ١ ، ص ٢٥٢) (الواقدي) .

(٢) الحاكم ، أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ) ، المستدرك على الصحيحين ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، د . ت (جـ٣ ، ص١٨٦) . وانظر : ابن سعد ، الطبقات (جـ٣ ، ص٦٦١) . الطبري ، تاريخ (جـ٣ ، ص٣٩٨) (ابن إسحاق) . ابن الأثير ، أسد الغابة (جـ١ ، ص٧٢) .

(٣) مثل سعد بن خيثمة ، استشهد يوم بدر (ت٢هـ) . وسعد بن الربيع ، استشهد يوم أحد (سنة ٣هـ) . وعبد اللَّه ابن رواحة ، استشهد يوم مؤتة (سنة ٨هـ) . وسعد بن معاذ ، استشهد في الخندق (سنة ٥هـ) . وكان هؤلاء من النقباء ، انظر ابن هشام ، السيرة (جـ١ ، ص٧٠٧) ، (جـ٢ ، ص٢٥) ، (جـ٢ ، ص٣٧٩) .

(٤) ابن سعد ، الطبقات (جـ٣ ، ص٦١١) .

ثالثًا : ملامح الإدارة في الهجرة النبوية

علمت قريش بخبر الذين بايعوا رسول اللّه ﷺ فازدادوا اضطهادًا للمسلمين [١] وكان هذا مدعاة إلى أن يستأذن المسلمون في الهجرة إلى إخوانهم في الدين ، فلم يأذن لهم النبي ابتداءً ، ثم إن النبي ﷺ قال لهم : « **رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض فيها نخل ، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة** » [٢] فأذن النبي ﷺ لهم بالهجرة ، وأشار البخاري (ت٢٥٦هـ) إلى ذلك بقوله : قال ﷺ : « **إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ... هاجر ...** » [٣] ويلاحظ أن المسلمين خرجوا إلى المدينة جماعات جماعات حتى لا يسترعوا الانتباه إليهم ، فقال ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) : « فخرج المسلمون تباعًا يترافدون بالمال والظهر » [٤] وتأخر النبي ﷺ في مكة ؛ إذ ليس من الحكمة أن يخرج في البداية ؛ لأنه القائد والمخطط والمراقب للموقف عن كثب والمتابع للأخبار ، وإصدارُ القراراتِ المناسبةِ لذلك أمر مهم في مثل هذه الحالة .

وتذكر المصادر أن قريشًا بدأت تُعدُّ خطتها لمنع الرسول ﷺ من الهجرة إلى المدينة ، وتشير الآية القرآنية إلى هذا الإعداد فيقول اللّه تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] [٥] .

لقد شعر النبي ﷺ وأبو بكر بذلك الإعداد المحكم فكان لابد من رسم خطة

---

(١) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص ٣٣٧ ، ٣٧٩) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٥٧ ، ٢٥٨) . ابن سيد الناس ، عيون الأثر (جـ١ ، ص٢١٠) .

(٢) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٧١) . وانظر : البيهقي ، السنن (جـ٩ ، ص٩) .

(٣) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٧٥) . وانظر : ابن هشام ، السيرة (جـ١ ، ص٤٦٨) . وأحمد ، المسند (جـ٦ ، ص١٩٨) .

(٤) ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٢٦) . وانظر : البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٧٧) ، الذهبي ، السيرة (ص٢١٣) .

(٥) انظر : تفاصيل هذا الاجتماع في ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٨٤) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٦٠) . الطبري ، تفسير (جـ١٣ ، ص٤٩٤ - ٤٩٦) . تاريخ (جـ١ ، ص٣٧٠) . الزمخشري ، الكشاف (جـ٢ ، ص١٥٤ ، ١٥٥) . ابن العربي ، الجامع (جـ٢ ، ص٨٤) . أبا حيان ، البحر المحيط (جـ٤، ص٤٨٧) . السيوطي ، الدر المنثور (جـ٤ ، ص٥١ - ٥٣) .

محكمة ؛ للخروج دون الاصطدام بقريش ، وقد وضعت هذه الخطة على أسس سليمة فطلب النبي ﷺ من علي بن أبي طالب (استشهد ٣٩هـ) أن ينام في فراشه ؛ حتى يظن هؤلاء أن النبي ﷺ مازال في فراشه [١] ، وكل ذلك كان يتم بسرية تامة ، فلا يعلم بالخروج إلا من كان له دور مرسوم في تنفيذ الخطة .

ابتدأ بتنفيذ الخطة المرسومة بأن خرج النبي ﷺ من بيته وجاء إلى بيت صاحبه أبي بكر ، وكان ذلك في وقت الهاجرة [٢] إذ يغلب على هذه الساعة هجوع الناس ، فلا يسترعى إليه الانتباه ، ثم إن النبي ﷺ خرج هو وأبو بكر من مكان خاص في بيت أبي بكر . يقول ابن إسحاق (ت١٥١هـ) : « خرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته » [٣] ، وفي الجهة المقابلة ، فكان من المنتظر أن يعد أبو بكر الصديق بقية الأمور ، اشترى راحلتين قويتين وتركهما عند عبد اللّه بن أريقط وقد استأجره أبو بكر « يدلهما على الطريق فدفعا إليه راحلتهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما » [٤] . أخذ النبي ﷺ طريقه إلى غار ثور جنوب مكة [٥] باتجاه اليمن ؛ لأنه يفترض في الملاحقين أن يتجهوا إلى الشمال وهم يعلمون أن وجهة النبي إلى المدينة الواقعة إلى الشمال من مكة ، ولهذا يقول المباركفوري : « ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشًا ستجد في الطلب ، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالاً ، فقد سلك الطريق الذي يضاده تمامًا » [٦] .

لقد اتجه النبي إلى غار ثور وذلك بعد أن تدارس الموقف مع أبي بكر وأفراد عائلته ولاسيما أولئك الذين لهم دور في الخطة ، فاتبع « مبدأ تقسيم العمل » فقام عامر بن فهيرة (ت٤هـ) بإخفاء آثار أقدامهما « إذ أمره أبو بكر - وهو مولاه - أن

---

(١) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٨٢) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٢٧) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٦٠) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٧٢) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص١٠٣) .

(٢) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٧٣ ، ٧٥) . الساعاتي ، الفتح الرباني (جـ٢٠ ، ص٢٨٠) .

(٣) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٨٥) . وانظر : البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٦٠) (قالوا) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٧٨) . ابن الأثير ، الكامل (جـ٢ ، ص١٠٤) .

(٤) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٧٦) الحاكم ، المستدرك (جـ٣ ، ص٨) .

(٥) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٧٥) . ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٨٦) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٦١) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٣٧٨) .

(٦) المباركفوري ، حقي الرحمن ، الرحيق المختوم « مكة المكرمة » ، رابطة العالم الإسلامي ، (١٩٨٠م) ، (ص١٨٣) .

يرعى غنمه نهاره ثم يريحهما عليهما - أي يأتيهما - إذا أمسى في الغار » [١] ، أما أسماء بنت أبي بكر (ت ٦٤هـ) فكان دورها في الخطة أن تأتي ليلًا بالطعام إلى الغار [٢] ، ويبدو أن اختيار أسماء كان مقصودًا ؛ لأن المرأة لا تثير شك أحد ، أما أخوها عبد اللَّه (ت ١٦هـ) فكان يقوم بدور مهم في مراقبة تحركات قريش والإتيان بأخبارها إلى رسول اللَّه ﷺ وصاحبه في الغار ، وكان اختيار عبد اللَّه (ت١٦هـ) في غاية الحكمة فهو « شاب ثقِف لقِن » [٣] أي حاذق سريع الفهم ، فكان يخرج من عندهما بالسحر، ويصبح مع قريش بمكة ، كأنه كان قائمًا فيها فلا يسمع من قريش أمرًا يبيتونه إلا وعاه حتى يأتيهما في المساء بخبره [٤] .

وينتظر أن يقوم كل واحد من هؤلاء بدوره المرسوم في الخطة بدقة متناهية ، حتى كان اليوم الثالث ، فخف الطلب عن رسول اللَّه ﷺ فخرج بعد أن توافق التقدير النبوي المسبق الذي ضربه لابن أريقط وتقادير عبد اللَّه بن أبي بكر (ت ١٦هـ) عن مكة .

لقد أنقذت هذه الهجرةُ الدعوةَ الإسلامية وانتقلت بها من مرحلة الضعف إلى القوة ومن الدعوة إلى الدولة ، وكانت بداية تكوين خطة جديدة تلائم الأرض الجديدة السيادة فيها للإسلام « وهكذا ؛ دخل محمد ﷺ المدينة وعلى رأسه إكليل من الغار وكان استقبال الناس له استقبال فاتح عاد منتصرًا لا استقبال مهاجر يطلب ملجأ » [٥] .

* * *

(١) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٧٦) . وانظر : ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٨٦) . ابن سعد ، الطبقات (جـ٢ ، ص٢٢٩) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٦) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٢٢٩ ، ٣٧٦ - ٣٧٨) .

(٢) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص ٧٨) . ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٤٨٦) . (ابن إسحاق) . ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٢٩) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٦٠) . الساعاتي ، الفتح (جـ٢٠ ، ص٢٨١) .

(٣) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٧٥) .

(٤) مصطفى السباعي ، السيرة النبوية ، دروس وعبر (ط٥) دمشق ، المكتب الإسلامي ، (١٩٨٠م) ، (ص٦٤) .

(٥) أرفنج داشنجتون ، حياة محمد (ط٢) دار المعارف ، مصر ، (١٩٦٦م) ، (ص١٢٧) .

رابعًا : إجراءات الرسول ﷺ الإدارية في المدينة بعد الهجرة

قدم النبي ﷺ المدينة فوجد مجتمعًا يختلف عن مجتمع مكة ، وجد تنافرًا بين عشائر المدينة واختلافًا في دياناتها [١] ، فبدأ بالتخطيط لمجتمع جديد ، وكانت أول قضية تواجه الإدارة النبوية هي قضية استيعاب المهاجرين الجدد في مجتمع المدينة ، فخط النبي ﷺ الدور للمهاجرين « فخط لبني زهرة في ناحية المسجد ، وجعل للزبير بن العوام بقيعًا واسعًا ، وجعل لطلحة موضع داره ، ولآل أبي بكر موضع دارهم ، وخط لعثمان موضع داره كذلك » [٢] وكان النبي ﷺ يقطع أصحابه هذه القطائع مما كان من عفائن الأرض [٣] ، أما ما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوه له ، فكان يقطع من ذلك ما شاء [٤] ، وتذكر المصادر أن هناك قومًا لم يجدوا أماكن ينزلون فيها فأنزلهم النبي مؤخرة المسجد (الصفة) فسمُّوا أصحاب الصفة [٥] وكانوا يكثرون ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر ، وكانوا ما يقارب المائة ، وكان النبي ﷺ يتعهدهم ويشرف عليهم [٦] ، وكان النبي ﷺ قد بنى مسجده قبل ذلك ، أو أن تقسيم البيوت وبناء المسجد تم في آن معًا وقد اشترى النبي ﷺ مكان المسجد واشترك هو والصحابة في بنائه فقال قائلهم :

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلل [٧]

ويلاحظ أن مسجد الرسول ﷺ كان مركزًا إداريًا للدولة الفتية ، فمنه كان

---

(١) انظر : ابن رستة ، الأعلاق (ص٦٤) ، ابن الأثير ، الكامل (جـ١ ، ص٦٥٩ - ٦٦٥) . السمهودي ، وفاء الوفا (جـ١ ، ص١٥٢ - ١٥٦) .

(٢) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان (ص٢٣) . وانظر : البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٧٠) . السمهودي ، وفاء الوفا (جـ١ ، ص٥١٨ ، ٥١٩) .

(٣) عفائن الأرض : مفردها عفن أي فسد ، وهو الشيء الذي فَسَدَ نتيجة الإهمال . انظر : ابن منظور ، لسان العرب (جـ١١ ، ص٢٨٨) .

(٤) السمهودي ، وفاء الوفا (جـ١ ، ص٥١٨ ، ٥١٩) .

(٥) انظر أخبار أهل الصفة ، وأسماؤهم في : ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٥٥ ، ٢٥٦) . البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٢٧٢) (قالوا) الحاكم ، المستدرك (جـ٣ ، ص١٥٠) (أبو هريرة) .

(٦) السمهودي ، وفاء الوفا (جـ١ ، ص٣٢١) .

(٧) ابن هشام ، السيرة (جـ١ ، ص٤٩٦) .

النبي ﷺ يوجه المسلمين في المجتمع الجديد ، وفيه يتدارس مع المسلمين الأمور الطارئة ويتخذ القرارات المناسبة [١] ، ولا يخفى أن المسجد كان مكانًا للشورى ؛ إذ يجتمع الناس في المسجد فيستشيرهم رسول اللّه في القضايا التي تستجد على الساحة الإسلامية ؛ إذ إن استشارة المسلمين في أحد والخندق كانت تتم في المسجد [٢] وكان المسجد أيضًا مكانًا لفض المنازعات ، ففيه يقضي النبي ﷺ بين المسلمين ، ومنه تنطلق الجيوش وتُستقبل الوفود ، ومنه ينطلق الرسل إلى الملوك والرؤساء وجباة الضرائب [٣] ، وكان كذلك دار ندوة للجماعة الإسلامية تبحث فيها جميع شؤونها ، أضف إلى ذلك دوره في القيام بالمهمة الروحية فهو مركز عبادة للمسلمين من صلاة وذكر ، وغير ذلك .

لقد كان بناء المسجد خطوة تنظيمية مهمة قُدمت على غيرها من خطوات إدارية تالية ومن خلال الصلاة بروحها الجماعية استطاع الإسلام أن يصل إلى درجة كبيرة من إذابة روح العصبية القبلية ، وربط الناس بالمبدأ الجديد وفق أحكام جديدة تقوم على العقيدة والأخوة لا على رابطة الدم والقرابة [٤] .

وقام المسجد في بقية أجزاء الدولة بنفس هذا الدور ؛ إذ لم يوجد مقر آخر للحكم والإدارة طول حياة الرسول ﷺ [٥] وبذلك يكون المسجد أول مركز للإدارة في الإسلام [٦] .

إن الأمر الآخر الذي اهتم به النبي ﷺ وكان إجراءً إداريًا ضروريًا في هذه المرحلة هو « المؤاخاة » فأشارت المصادر إلى ذلك ، فقال ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) : « وآخى رسول اللّه ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال : « **تآخوا في اللّه أخوين أخوين** » ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب (ت ٣٩هـ) فقال : « **هذا أخي** » ، وهكذا تآخى الصحابة اثنين اثنين » [٧] . لقد كانت هذه المؤاخاة ضرورية لإذهاب الوحشة والغربة عن

---

(١) حسن أبو ذكية ، التنظيم الإداري في الفكر الإسلامي (جـ٥) جامعة الملك عبد العزيز ، (١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) . والقطب محمد طبلية ، نظام الإدارة في الإسلام ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، (١٩٨٥م) ، (ص٧٢) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (م٢ ، ص٦٣) (ابن إسحاق) ، (جـ٢ ، ص٢٢٤) .

(٣) محمد كرد علي ، الإدارة العربية (ص٤٥ ، ٤٦) .

(٤) فرج الهوني ، النظم الإدارية (ص٢٤ ، ٢٥) . (٥) كرد علي ، الإدارة (ص٤٦) .

(٦) محمد جوهين ، التنظيمات الإدارية في الإسلام ، القاهرة ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، (١٩٨٤م) ، (ص١٤٧) . وفرج الهوني ، النظم الإدارية (ص٢٥) .

(٧) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٥٠٤ - ٥٠٧) (ابن إسحاق) . وانظر : ابن سعد ، الطبقات (جـ١ ، ص٢٣٨) . ابن حبيب ، المحبر (ص٧٠ - ٧٥) . الذهبي ، السيرة (جـ١ ، ص١٤٣) . ابن حجر ، الفتح (جـ١٥ ، ص١٣٢) .

ليشد بعضهم بعضًا ولاسيما أن المهاجرين تركوا كل المقومات الأساسية للحياة في مكة [١] .

وهكذا كانت المؤاخاة خطوة مهمة في توحيد المجتمع الجديد تضاف إلى ما سبقها من خطوات ، وكان النبي ﷺ قد فكر جديًّا بنظام يحل محل نظام « الأحلاف » الذي كان سائدًا في الجاهلية فوضع نظام المؤاخاة بديلًا عن ذلك .

لقد قدم الأنصار للمهاجرين أكثر مما توقعوه إذ « قالت الأنصار للرسول ﷺ : يا رسول اللَّه ؛ اقسم بيننا وبينهم النخل . قال : « **لا** » . قال : « **تكفونا المؤنة وتشركونا في التمر** » . قالوا : سمعنا وأطعنا » [٢] .

لقد دلَّت الروايات على أن المهاجرين عملوا في مزارع الأنصار مقابل أجرة معينة عن طريق المزارعة [٣] . ولم يقتصر كرم الأنصار على ذلك ؛ بل وصل إلى حد أن قال سعد ابن الربيع (ت٣هـ) لعبد الرحمن بن عوف (ت٣٢هـ) أخيه في النظام الجديد : « إني أكثر الأنصار مالًا فاقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها . قال : بارك اللَّه لك في أهلك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع » [٤] ، وكان هذا التكافل الرائع هو القوة الوحيدة التي يمتلكها المجتمع المسلم في البداية ، ومن ثم فإن هذا الإجراء كان ضروريًّا لتفادي وقوع المهاجرين في مشاكل اقتصادية واجتماعية خطيرة ؛ ولاسيما أنهم يتقنون التجارة في حين كانت المدينة دار صناعة وزراعة [٥] .

كان المتآخون يتوارث بعضهم بعضًا ، فلما عزَّ الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أنزل اللَّه سبحانه ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ [الأحزاب : ٦] [٦] . فنسخت هذه الآية ذلك التوارث الذي أقر بموجب نظام المؤاخاة ، وبقي من معاني المؤاخاة النصر والنصيحة ، وإلى هذا يشير الإمام النووي (ت٦٧٦هـ) بقوله : « أما

---

(١) ابن حبيب ، المحبر (ص٧٠ - ٧٥) . الزرقاني ، المواهب (جـ١٥ ، ص٣٧٣) .

(٢) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٣٩) . النووي ، شرح صحيح مسلم (جـ١٢ ، ص٩٩) .

(٣) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٣٩) . مسلم ، الصحيح (جـ٣ ، ص١٤١) .

(٤) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ٣٩ ، ٨٨) . قال السمهودي : « إن السوق كانت في بني قينقاع ، ثم حول السوق بعد ذلك » . انظر : السمهودي ، وفاء الوفا (جـ١ ، ص٥٣٩) .

(٥) البخاري ، الصحيح (جـ٥ ، ص٣٩ ، ٨٨) . أحمد إبراهيم الشريف ، الدولة الإسلامية الأولى ، دار القلم ، سنة (١٩٦٥م) ، (ص٦٧ - ٦٩) .

(٦) انظر : الزمخشري ، الكشاف (جـ٢ ، ص١٧٠) . أبا حيان ، البحر المحيط (جـ٤ ، ص٥٢٣) . السيوطي ، الدر المنثور (جـ٤ ، ص١١٧) .

ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء ، وأما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة اللّه تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فباقٍ لا ينسخ » [١] .

ولا شك في أن التوارث كان لمعالجة ظروف طارئة مرت بها الدعوة الإسلامية في المدينة ، فكان هذا إجراءً إداريًّا سريعًا للتغلب على هذه المشكلة ، ومن المنتظر أن يكون المهاجرون قد ألفوا جو المدينة وتعرفوا إلى سبل الرزق فيها [٢] . وأصابوا من غنائم بدر (٢هـ) ما سد حاجتهم ، فرجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية والقائم على أساس الرحم والقرابة .

ويلاحظ أن النبي ﷺ أولى اهتمامًا كبيرًا للناحية الاقتصادية لارتباطها بالكيان السياسي ، وقد كانت قبائل اليهود تحتكر التجارة والأسواق وبيدهم عصب الاقتصاد في المدينة ، ومثل هذا الوضع يجعلهم دولة داخل دولة وكان هناك عدة أسواق [٣] أشهرها سوق بني قينقاع ، وكان هذا السوق هو السوق الرئيسي للمدينة ، وكان العرب (الأنصار) يتعاملون فيه بيعًا وشراءً .

لقد تنبه النبي ﷺ إلى خطورة هذه السيطرة اليهودية ، فكان لابد من إجراء إداري سريع يحوِّل هذه السيطرة للأمة الجديدة ، فيروى أن النبي ﷺ ذهب إلى أكبر سوق لليهود فألقى عليه نظرة فاحصة ، ثم بحث عن مكان آخر في المدينة يعدل هذا السوق أو يفوته في المساحة والمركز والنظام [٤] . فقد روى ابن ماجه (ت ٢٧٥هـ) : « أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال : إني رأيت موضعًا للسوق أفلا تنظر إليه ؟ . قال : **بلى** ، فقام معه حتى جاء موضع السوق ، فلما رآه أعجبه وركض برجليه ، وقال : « **نعم سوقكم هذا فلا ينتقض ولا يُضربن عليكم خراج** » [٥] . ويذكر أن النبي ﷺ « ذهب ابتداءً إلى سوق النبك ، فنظر إليه فقال : « **ليس لكم هذا بسوق** » ثم رجع إلى

---

(١) مسلم ، الصحيح (جـ٤ ، ص١٩٦٠) (في الهامش) .

(٢) العمري ، المجتمع المدني (خصائصه وتنظيماته) (ص٧٧) .

(٣) منها سوق بزباله ، وسوق بالجسر ، وسوق بالصفاصف بالقصبة ، وسوق في منطقة تسمى مزاحم ، وهذه أسماء أماكن في المدينة المنورة . انظر : السمهودي ، وفاء الوفا ، (جـ١ ، ص٥٣٩) .

(٤) أحمد محمد ، الجانب السياسي في حياة الرسول (ط١) الكويت ، دار القلم ، (١٤٠٢هـ) ، (ص٦٩) .

(٥) ابن ماجه ، أبو عبد اللّه بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) ، سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، د . ت (جـ٢ ، ص٧٥١) ، (قال ابن ماجه : ضعيف) . وانظر : الكتاني ، التراتيب الإدارية (جـ٢ ، ص١٦٤) .

هذه السوق فطاف به ثم قال : « **هذا سوقكم** » [١] .

ويلاحظ أن النبي ﷺ كان يراقب الأسواق بنفسه وقد طلب بعض الصحابة من الرسول ﷺ أن يسعر للناس ، ولكن الرسول امتنع من ذلك ، فقد مر النبي ﷺ برجل يبيع طعامًا في السوق بسعر أرفع [٢] من سعر السوق فقال : « **تبيع في سوقنا بسعر هو أرفع من سعرنا ؟!** » قال : نعم يا رسول اللَّه . قال : « **صبرًا واحتسابًا ؟** » قال : نعم يا رسول اللَّه . قال : « **أبشروا فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل اللَّه ، وإن المحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب اللَّه** » [٣] .

واستطاع المسلمون بحسن تعاملهم أن يحوِّلوا الناس من سوق اليهود إلى سوقهم مما جعل كعب بن الأشرف اليهودي (ت٣هـ) يدخل إلى سوق المسلمين ويقطع أطنابها [٤] ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **لا جرم لأنقلنَّها إلى موضع هو أغيظ له من هذا** » فنقلها من موضع بقيع الزبير إلى سوق المدينة » [٥] . ولعل هذا الأسلوب التهجمي الصارم الذي اتبعه كعب ابن الأشرف (ت ٣هـ) كان في أوائل أشهر الهجرة حيث لا يزال لليهود نفوذ قوي ، ويلاحظ أيضًا أن كعب بن الأشرف شعر أن مصالح اليهود الاقتصادية قد أصبحت في خطر نتيجة منافسة السوق الجديد .

لقد كان هذا التصرف من كعب - وهو من يهود قينقاع - حافزًا للنبي ﷺ بأن يفكر جديًّا بطرد اليهود من المدينة ، وكان بنو قينقاع أول من طرد [٦] وبعدها استطاع النبي ﷺ أن يمسك بزمام الاقتصاد المدني ويوجهه الوجهة الإسلامية الخالية من كل استغلال وجشع .

وكان من أعظم الإجراءات الإدارية التي قام بها الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة القيام بكتابة دستور المدينة الذي ينظم العلاقات بين سكانها ، ويعد ذلك

---

(١) الكتاني ، التراتيب الإدارية (جـ٢ ، ص١٦٣) . (٢) أرفع : أي أقل من سعر السوق .

(٣) السمهودي ، وفاء الوفا (جـ١ ، ص٥٤٦) .

(٤) أطنابها : الأطناب جمع طنب ، وهي ما يُشد به البيت من الحبال بين الأرض والطرائق ، انظر : ابن منظور ، اللسان (جـ١ ، ص٥٦١) .

(٥) السمهودي ، وفاء الوفا (جـ١ ، ص٥٣٩ ، ٥٤٠) . ويبدو أن هذا التصرف وغيره من التصرفات العدائية جعلت النبي ﷺ يفكر باغتيال كعب بن الأشرف (سنة ٣هـ) وبالفعل تم اغتياله من قبل مجموعة من المسلمين . انظر : ابن هشام ، السيرة (م٢ ، ص١٥١) .

(٦) صالح أحمد العلي ، إدارة الحجاز في العهود الإسلامية الأولى ، مجلة الأبحاث ، بيروت ، الجزء (٢١) أذار ، (١٩٦٨م) ، (ص٣١ ، ٣٢) .

الخطوة الأساسية في إقامة حكومة المدينة .

أشارت المصادر إلى هذا الدستور بعدة ألفاظ ، فابن إسحاق (ت ١٥١هـ) - وهو مصدرها الأول - يطلق عليها « الصحيفة » [١] وأطلق عليها ابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ) اسم « الموادعة » [٢] ، وأطلق عليها البعض أسماء أخرى مثل « الوثيقة » و « الكتاب » و « المعاهدة » و « الدستور » ... إلى غير ذلك [٣] .

إن تسمية ابن سيد الناس (٧٣٤هـ) للصحيفة باسم (الموادعة بين المسلمين واليهود) غير دقيقة ؛ لأن هذه التسمية لا تعطي صورة حقيقية عن محتويات الصحيفة والتي تشمل كثيرًا من المواد الخاصة بالمسلمين ، أما كلمة « صحيفة » فتعني أنها إعلان من جانب الرسول ﷺ يُبيِّن فيها الأمور الواجب تنفيذها [٤] ، ويبدو أن النبي ﷺ أراد من إصدارها هذا الأمر ، فهي بيان مسجل للتنظيمات الإدارية المراد اتباعها فبدأ بقوله : **« هذا كتاب من محمد ... »** [٥] .

ولعل من المفيد أن نذكر قضية مهمة بالنسبة إلى هذه الصحيفة ، فكتب الحديث هذه المعتبرة لم ترو نص الكتاب كاملًا ، وأقدم مصدر ورد فيه النص كاملًا هو ابن إسحاق (ت١٥١ هـ) دون إسناد [٦] . ولم يذكر ابن إسحاق (ت١٥١هـ) المصدر الذي أخذ منه ، في حين يذكر البيهقي (ت٤٥٨هـ) في سننه المواد المتعلقة بالمسلمين ولم يذكر المواد الخاصة باليهود ، وأسندها البيهقي (ت ٤٥٨هـ) إلى ابن إسحاق كذلك [٧] ، أما ابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ) وابن كثير (ت٧٧٤هـ) فقد ذكراها دون إسناد وهما ينقلان عن ابن إسحاق (ت١٥١) [٨] . ويذكر ابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ) أن ابن خيثمة أورد الكتاب فأسنده هذا الإسناد : « حدثنا أحمد بن خباب أبو الوليد حدثنا عيسى بن يوسف حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن

---

(١) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤) .

(٢) ابن سيد الناس ، عيون الأثر (جـ١ ، ص٢٣٨) .

(٣) انظر : صالح أحمد العلي ، تنظيمات الرسول الإدارية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد (١٧) ، سنة (١٩٦٩م) ، (جـ١٧ ، ص٥١) .

Akiya goto, The Constitution of Medina, orievt volume, XVIII, 1982, P.P.1 . Sarjeant, P.P.1 .

(٤) العلي ، تنظيمات الرسول (جـ١٧ ، ص٥١) .

(٥) حميد الله ، مجموعة الوثائق ، فقرة رقم ١ ، (ص٥٩) .

(٦) ابن هشام ، السيرة (م١ ، ص٥٠١ - ٥٠٤) (ابن إسحاق) .

(٧) البيهقي ، السنن (جـ٨ ، ص١٠٦) .

(٨) ابن سيد الناس ، عيون الأثر (جـ١ ، ص٢٣٨ - ٢٤٠) . ابن كثير ، السيرة (جـ٢ ، ص٣٢٠ - ٣٢٢) .

أبيه عن جده أن رسول اللّه كتب كتابًا ... » [١] .

أما رواية أبو عبيد (ت٢٢٤هـ) في الأموال فهي عن «.ربحي بن عبد اللّه بن بكير وعبد اللّه بن صالح أنهما قالا : حدثنا الليث بن سعد قال : حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب أنه قال : بلغني أن رسول اللّه كتب كتاباً ... » [٢] .

إن أولئك الذين ينكرون صحة هذه الصحيفة [٣] . يعتمدون على أن كتب الحديث الصحيحة لم ترو نص هذا الكتاب مع أنها أوردت مقتطفات تشمل عددًا من مواد هذه الصحيفة ؛ ولاسيما تلك التي تتعلق بتنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار ، فقد أورد جزءًا من هذه الصحيفة الإمام أحمد (٢٤١هـ) في مسنده [٤] وأبو داود (ت٢٧٥هـ) في سننه [٥] والبيهقي (ت٤٥٨هـ) في سننه كذلك [٦] .

أما نصوص الصحيفة فهي مكونة من جمل قصيرة ومعقدة التركيب . ويكثر فيها التكرار ويستعمل كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ثم قلَّ استعمالها فيما بعد حتى أصبحت صعبة على غير المتعمقين بدراسة هذه الفترة [٧] ، ولعل النظرة الفاحصة للأسلوب والمحتوى يجعلنا نطمئن إلى صحة هذه الصحيفة وهي تمثل في بعض موادها ذلك التنظيم الذي كان سائدًا في الجاهلية من حيث الترابط القبلي والاعتراف بقوة العصبية ، والصحيفة في مجملها توافق روح القرآن دون الإشارة إليه صراحةً ؛ إذ إن القرآن لم يذكر كثيرًا من الحوادث المهمة التي حدثت في المجمع المدني [٨] .

---

(١) ابن سيد الناس ، عيون الأثر (جـ١ ، ص٢٣٨) .

(٢) أبو عبيد ، القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) ، الأموال ، تحقيق محمد خليل محمد هراس (ط١) القاهرة ، مطبعة الكليات الأزهرية ، (١٩٦٨م) ، (ص١٨٤) .

(٣) أنكرها يوسف العش في تعليقه على كتاب ، فلها وزن ، الدولة العربية وسقوطها ، وهو كتاب نقله عن الألمانية ، ترجمة يوسف العش ، دمشق ، جامعة دمشق ، (١٩٥٦) ، (ص٢٠ ، ٢١) (الهامش) .

(٤) أحمد بن حنبل ، المسند (جـ١ ، ص١٧١) ، (جـ٢ ، ص٢٠٤) ، (جـ٣ ، ص٢٤٢) .

(٥) ابن القيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، عون المعبود في شرح سنن أبي داود ، نشره حسن إيراني ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، د . ت (جـ٨ ، ص٢٢٩ ، ٢٣٠) .

(٦) البيهقي ، السنن (جـ٨ ، ص١٠٦) . (٧) العلي ، تنظيمات الرسول (ص٥١ ، ٥٢) .

(٨) من ذلك : اعتبار المسلمين أمة واحدة وهذا يوافق قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . التعاون والتراحم وهذا يوافق قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] . وجوب الخضوع للدولة ووافق هذا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩] وانظر : الشريف ، الدولة الإسلامية الأولى (ص٧٤ - ٧٦) Sarjeant P. P 7 .

وهذه الصحيفة في الأصل صحيفتان (وثيقتان) [١] . أحدها يختص بالمهاجرين والأنصار ، والأخرى بالمسلمين من جهة واليهود من جهة أخرى ، وقد اختلفت المصادر في تحديد تاريخ مضبوط لكتابة هذه الصحيفة ، فبعضهم يرى أنها كتبت قبل بدر [٢] وأما البعض الآخر فيرى أنها كتبت بعد بدر [٣] في حين ذكر آخرون أن إحدى الوثيقتين كتبت قبل بدر والأخرى بعد معركة بدر (سنة ٢هـ) [٤] وليس لدينا نص قاطع يثبت ويقطع بصحة رواية دون الأخرى .

تبدأ الصحيفة ببيان الأطراف المشتركة فيها ، ولا نعلم إذا كانت مواد الصحيفة قد صيغت بعد مفاوضات ، أو أنها كانت كالمعاهدات الأخرى ؛ لأن نص الكتاب لا يذكر طرفًا آخر [٥] . ويرى سيرجنت « **أن الوثيقة تحمل تواقيع وأختام الأطراف المتعاقدة وأن ابن إسحاق لم يورد هذه الأسماء لعدم حصوله على النسخة كاملة** » [٦] . « **هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم** » [٧] ثم قررت الصحيفة أن هؤلاء أمة دون الناس ، والأمة مجموعة أحلاف ؛ إذ إن الأفخاذ والقبائل تركت كما كانت وأصبحت أعضاء في الأمة وعد المهاجرين فخذًا واحدًا [٨] وأما الفرد فيشارك في الأمة مشاركة مباشرة عن طريق الفخذ والقبيلة وعلاقة الفخذ بالأمة تتضح في أنه يدفع النفقات غير الخاصة كالدين وفداء الأسرى كما كان من قبل ؛ إذ لم يكن يوجد خزينة مركزية آنئذ ؛ ولذا نصت الصحيفة « **إنهم أمة واحة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم فيتعاقلون بينهم** » [٩] . وكلمة (الأمة) شملت أيضًا

---

(١) قال سيرجينت : « إن دستور المدينة الذي كتبه النبي ﷺ ... كان يتألف من ثماني وثائق ، وإنها صدرت في مناسبات متعددة خلال السنوات السبع الأولى من حياة محمد في المدينة » - Sarjeant, P. P - 1 .

(٢) البلاذري ، أنساب (جـ١ ، ص٣٨٠) . الطبري ، تاريخ (جـ٢ ، ص٤٠٢) . (الواقدي) . السهيلي ، الروض (جـ٤ ، ص٢٩٥ ، ٢٩٦) . أبو عبيد ، الأموال ، رقم (٥١٨) ، ص ، فلهاوزن ، الدولة العربية ، (ص١١ ، ١٢) . الدوري ، نظم (ص١٧ ، ١٨) .

(٣) ابن القيم ، عون المعبود (جـ٨ ، ص٢٢٨ - ٢٣٠) . العلي ، تنظيمات الرسول (ص٥٣٠) .

(٤) حميد الله ، مجموعة الوثائق ، فقرات (٢٤ - ٢٧) ، (ص٦١) .

Go to P 16.

Sarjeant. P. 1

(٥) العمري ، المجتمع المدني ، « خصائصه وتنظيماته الأولى » ، (ص١٢٩) .

(٦) Sarjeant, P. P. 10 -9

(٧) حميد الله ، مجموعة الوثائق ، فقرة ١ ، (ص٥٩) .

(٨) الدوري ، نظم (ص١٨) .

(٩) حميد الله ، مجموعة الوثائق ، فقرة (٢ ، ٣) ، (ص٥٩) .

طوائف المدينة الأخرى كاليهود ، وإن كانوا لا ينتمون إليها انتماءً وثيقًا كالمهاجرين والأنصار ؛ ولذلك لم تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق [١] .

لقد كانت التكليفات بين الأفخاذ والبطون ضرورة لسد العجز الذي قد ينشأ عن عدم وجود بيت مال « **المهاجرين من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم** [٢] **بالمعروف والقسط بين المؤمنين** » [٣] . ويلاحظ في المواد التالية أن الصحيفة كررت هذه المادة مع بقية الأفخاذ والبطون ، وذكر منها بني عوف وبني ساعدة وبني الحارث وبني جشم وبني النجار وبني عمرو بن عوف وبني النبيت وبني الأوس [٤] وبذلك فإن الصحيفة لم تشر إلى الحيَّين الكبيرين (الأوس والخزرج) بل ذكرت البطون الصغيرة ؛ لأن أثرها أقوى في المجتمع اليثربي إضافة إلى أن هذه التكليفات تقوم بها البطون الصغيرة دون القبائل الكبيرة [٥] .

وكان على هذه البطون أن تسكن في مكان واحد كنوع من التنظيم للمجتمع المدني وأن يتعاون هؤلاء في حمل هذه التكاليف كالدين وغيره ، فقالت الصحيفة : « **لا يتركون مُغرمًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل** » [٦] وهذا يوضح جليًا أن النبي ﷺ لم يكن يريد تحطيم القبيلة ، إنما كان يريد أن يتخطى العصبية محاولًا تشذيبها وتوجيهها بحيث يستفاد منها وَفْقَ مفاهيم الدين الجديد الداعية إلى التكافل في المجتمع الإسلامي .

أما كلمة « طائفة » الواردة في هذه المادة أن كل طائفة ... [٧] . فيقصد بها فروع (بطون) القبائل دون الأفراد ، ولعل في هذا نوعًا من التخصيص أكثر دقة بأن تتحمل هذه الطوائف أخطاء أفرادها الصغار دون أن يحملَ ذلك للقبيلة الكبيرة [٨] .

ونصت الصحيفة أيضًا « **أنه لا يخلف مؤمن مولى مؤمن دونه** » [٩] وفي هذا إقرار

---

(١) الشريف ، دور الحجاز (ص٨٧ ، ٨٨) .

(٢) عانيهم : العاني ، الأسير . انظر : ابن هشام (م١ ، ص٥٠٢) .

(٣) حميد الله ، مجموعة الوثائق ، فقرة (٣) ، (ص٥٩) .

(٤) م . ن ، فقرة (١٤ ، ١٥) ، (ص٥٩ ، ٦٠) .

(٥) انظر : العلي ، تنظيمات الرسول الإدارية (ص٥٧) .

(٦) حميد الله ، مجموعة الوثائق ، فقرة (١٢) ، (ص٦٠) . العقل : الدِّية ، يعقله القتيل يعقله عقلًا : وداه ، انظر ابن منظور ، لسان العرب (جـ١١ ، ص٦٠) . السهيلي ، الروض الأنف (جـ٤ ، ص٢٩٢ - ٢٩٥) .

(٧) حميد الله ، مجموعة الوثائق ، فقْرة (٣) ، (ص٥٩) .

(٨) إبراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الإسلامية (ط١) بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر ، (١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م) ، (ص١٠٦) .

(٩) حميد الله ، مجموعة الوثائق ، فقرة (١٢ب) ، (ص٦٠) .

لقضية الموالاة التي كانت سائدة في الجاهلية والإسلام ، وبهذا حاول أن يمنع إحداث مشاكل اجتماعية وسياسية وإدارية لمجتمع حديث عهد بالجاهلية ، وأن ينظم هذه القضية بين الموالي ومن يوالونهم ؛ حفاظًا على وحدة المجتمع الإسلامي .

وإذا أخل أحد بالأمن أو اعتدى أو أفسد فقد جعلت الصحيفة الأمة كلها مسؤولة عن حماية هذا الأمن وردع المفسد [١] وتمكين السلطة من القصاص العادل من المجرم ، وليس لأحد من عشيرته أن يعترض على ذلك ، وكان ذلك يعني أن تتوحد السلطة وألَّا يكون هناك عوائقُ قبليةٌ و عشائرية أمام سيادة القانون « **وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه ولو كان ولد أحدهم** » [٢] ويفهم من ذلك أن السعي إلى تطبيق هذه الحدود واجب ديني ، وهذا واضح من النص (المؤمنين المتقين) ، وكلمة « المتقين » تعني أن هذه التنظيمات والالتزام بها هو من التقوى التي يجب على المؤمنين الالتزام بها [٣] . ويفترض أن تكون هذه الإجراءات قد خطت خطوات واسعةً لإيقاف الخصومات بين عشائر المدينة ، وبذلك تحول الثأر الذي كانت تقوم به العشيرة إلى عقوبة تقوم بها الأمة ممثلة في سلطتها الحاكمة [٤] . التي أصبحت هي المنوطة بتعقب المجرمين والقيام على أمن الأفراد في المجتمع الجديد ثم وضحت الصحيفة حدود العقوبات الجنائية ، فكانت المادة التي تدل على أن دم الكافر لا يكافئ دم المسلم « **ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر** » [٥] . وما ورد من أنهم « **أمة دون الناس** » [٦] . والذي جاء دامغًا لأهل الصحيفة لم يشمل هؤلاء في أمور الدماء ، ولعل ذلك كان الإطار السياسي الذي جمع بين هؤلاء في الإنفاق والدفاع عن أرض يعيش فيها هؤلاء جميعاً [٧] . ويفترض أن تكون هذه المادة قد أعطت المجتمع نوعًا من الاستقرار ونسيان الدماء التي أريقت في الجاهلية ، فألغى الإسلام تلك الدماء وأكد

---

(١) الدوري ، نظم (ص١٩) . العدوي ، نظم (ص١٢٠) .

(٢) حميد اللّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (١٣) ، (ص٦٠) . دسيعة : عظيمة . انظر : ابن هشام (م١ ، ص٥٠٢) .

(٣) العمري ، المجتمع المدني ، خصائصه وتنظيماته الأولى (ص١٣٢) .

(٤) الدوري ، نظم (ص٢٠) .

(٥) حميد اللّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (١٤) ، (ص٦٠) .

(٦) م . ن ، فقرة (٢) ، (ص ٥٩) .

(٧) M. Walt: Mahammad at Medina ,P.P. 188-208.

وانظر : صفوان السيد ، الأمة والجماعة والسلطة ، دار اقرأ (ط١) (١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م) ، (ص٥٤) .

على مفهوم العقيدة الجديدة دون رابطة الدم والقرابة « **ولا ينصر كافرًا على مؤمن** » (١) .

وأعطت الصحيفة قيمة كبيرة لأفراد المجتمع المسلم حتى إن أحدهم كان باستطاعته أن يجير الآخرين إلا من حددت الصحيفة عدم إجارتهم « **وأن ذمة اللّه واحدة يجير عليهم أدناهم** » (٢) وبذلك أقرت هذه المادة مبدأ الجوار - الذي كان معروفًا قبل الإسلام - وجعله حقًّا لكل مسلم ولكنه حصر الموالاة بين المؤمنين . والولاء تعني المحبة والتعاون والنصرة ، فلا يجوز إذًا أن يوالي المؤمن كافرًا لقوله : ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٢٨] وجاءت الآيات القرآنية تؤيد هذه الموالاة وتجعلها جزءًا من الإيمان إذ قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ . وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم ﴾ [الممتحنة : ١] وقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٣) .

انتقلت الصحيفة لاعتبار الحرب والسلم جزءًا من سيادة الدولة ، فلا يجوز لأي فرد أو قبيلة أن تسالم أو تحارب دون الرجوع إلى الدولة ، فنصت الصحيفة « **وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل اللّه إلا على سواء وعدل بينهم** » (٤) وهذا طبيعي في جو أحاط المسلمين فيه من الأخطار الشيء الكثير ، والرسول ﷺ بصفته رئيسًا للدولة هو الذي يعلن الحرب أو السلم وعلى سائر أهل الصحيفة أن يتبعوا النبي ﷺ في حربه وسلمه .

وأشارت الصحيفة في بعض موادها إلى نوع من التنظيم العسكري ، فهناك تناوب بين المسلمين في الخروج للغزو في سبيل اللّه « **وإن كل غازية غزت منا يعقب بعضها بعضًا** » (٥) وكان هناك نص خاص يجعل أهل المدينة صفًّا واحدًا أمام أي خطر خارجي أو داخلي سواء أصاب فردًا أم مجموعة أفراد « **وأن المؤمنين بيئ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل اللّه ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه** » (٦) .

وذكرت الصحيفة مواد خاصة تنظم طريقة التعامل مع قريش وهي العدو الرئيسي

---

(١) حميد اللّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (١٥) ، (ص٦٠) .

(٢) م . ن ، فقرة (١) ، (ص٦٠) .

(٣) حميد اللّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (١٧) ، (ص٦٠) .

(٤) العمري ، المجتمع المدني - خصائصه وتنظيماته الأولى (ص١٣٢ ، ١٣٣) .

(٥) حميد اللّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (١٨ ، ١٩) ، (ص٦٠) .

(٦) م . ن ، فقرة (٢٠) ، (ص٦٠) ، يبئ : أباءه به أي : قتله به ، جعله بواء له . انظر : السهيلي ، الروض الأنف ، (جـ٤ ، ص٢٩٥) .

للدولة الجديدة ؛ ولذا منعت الصحيفة أهلها - ولاسيما المشركين واليهود - أن يجيروا أحدًا من أهل مكة ، وبذلك استطاع النبي ﷺ أن يضبط أمور غير المسلمين في المدينة « **لا يجير مشرك مالًا لقريش ونفسًا ، ولا يحول دونه على مؤمن** » [١] وينتظر أن يكون المشركون قد أثاروا موضوع إجارة المؤمنين - كما في مادة سابقة - ولكن الوضع هنا يختلف تمامًا ، فمكة في حالة حرب وعداء مع المسلمين ، والسماح لهؤلاء بإجارتهم يعني إحداث شرخ كبير في أمن المدينة ودفاعاتها .

وحددت الصحيفة بعض ملامح النظام القضائي الجديد في المدينة ، وجاءت المواد الخاصة بالقضاء كإطار قضائي للمواد الأخرى ، ومن خلالها حددت العقوبات على الجنايات المختلفة فنصت الصحيفة « **وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنه قود به إلَّا أن يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة لا يحل لهم إلا قيام عليه** » [٢] فالقاتل يقتل إلَّا أن يعفو وليه ، وعلى الأمة جميعًا أن تمكن السلطة والقضاء من أخذ الحق من القاتل ، وهذا التأكيد كان ضروريًّا في مجتمع قبلي يقف مع ابن القبيلة ظالمًا كان أو مظلومًا ، ويلاحظ أن الربط الدائم بين الإيمان وبين تطبيق هذه المواد فقال : « **وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن باللَّه واليوم الآخر أن ينصر مشركًا أو يؤويه ، وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة اللَّه وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل** » [٣] .

ويفهم من مواد الصحيفة أن السلطات الإدارية والقضائية والعسكرية جعلت بيد حاكم المدينة الرسول ﷺ ، فهو المرجع الأعلى في كل خلاف سواء كان بين المؤمنين أنفسهم أو بينهم وبين جيرانهم ، فهو عليه السلام يشرف على جميع الميادين التطبيقية لجميع ما قررته الصحيفة [٤] « **وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردَّه إلى اللَّه عز وجل** » [٥] .

أما القسم الآخر من الصحيفة فينظم العلاقات بين المؤمنين وبين اليهود القاطنين في المدينة وأطرافها ، فقد ألزمت هذه الصحيفة اليهود بدفع قسط من نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة [٦] وذلك في مادتين من مواد الصحيفة « **وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين** » [٧] والأخرى « **وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم**

---

(١) حميد اللَّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (٢ب) ، (ص٦٠) .

(٢) م . ن ، فقرة (٢١) ، (ص٦٠ ، ٦١) . (٣) م . ن ، فقرة (٥ ، ٢٢) ، (ص٦١) .

(٤) العدوي ، نظم (ص١٢٦) .

(٥) حميد اللَّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (٢٣) ، (ص٦١) .

(٦) العمري ، المجتمع المدني (ص١٢٣) ، وانظر Go to P. P 9 - 10

(٧) حميد اللَّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (٢٤ ، ٣٨) ، (ص٦١ ، ٦٢) .

وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة » [١] . ويتضح من النص أن كل فئة تدبر أمورها الخاصة في النفقة ، أما في حالة الدفاع عن المدينة فلابد أن تشترك كل فئة بنصيبها من النفقة ، وهذا واضح من قوله « **وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين** » [٢] ، وينتظر أن تكون هذه المواد قد جعلت أهل يثرب وحدةً واحدةً في حالة الحرب ، وأن المجتمع الجديد يحتاج إلى مثل هذه الوحدة للدفاع عن كيانه في ظل الأخطار المحيطة به .

ويبدو لنا من خلال استقراء حوادث السيرة أن اليهود لم يشتركوا في الدفاع عن المدينة لاسيما في الحروب الدفاعية كأحد والخندق وما ورد من إشارات في ذلك تفتقر إلى الصحة ، فرواية الزهري (ت١٢٤هـ) : « كان اليهود يغزون مع رسول اللّه فيسهم لهم » [٣] . هي من مراسيل الزهري والعلماء لا يحتجون بهذه المراسيل [٤] .

أما الحديث الآخر فهو « أن النبي استعان بيهود قينقاع » الذي ورد عن طريق الحسن ابن عمارة (ت ١٢٤هـ) وأخرجه البيهقي (ت ٤٥٨هـ) فقال عنه : متروك [٥] وهناك مجموعة أخرى من الأحاديث لم تثبت صحتها .

وكذلك ؛ فإن اليهود من الناحية العلمية لم يشتركوا في الدفاع عن المدينة وهناك أحاديث تمنع اليهود من ذلك فقد ذكر الحاكم (ت٤٠٥هـ) : أن النبي ﷺ خرج حتى إذا بلغ خلف ثنية الوداع إذا كتيبة ، فقال : « **من هؤلاء ؟** » قالوا : بنو قينقاع - وهم رهط عبد اللّه بن سلام - قال : « **وأسلموا** » قالوا : لا ، بل هم على دينهم ، قال : « **قولوا لهم فيرجعوا فإنَّا لا نستعين بالمشركين** » [٦] .

ويظهر من بقية المواد التي تخص اليهود أن النبي ﷺ ترك لهم حرية المعتقد فلا يكره أحد على دين من الأديان ، وكان ذلك يعني قمة التسامح الديني الذي أقره الإسلام ودعا إليه . وطبقه المسلمون في أول دستور أعلنه الإسلام في المدينة المنورة « **لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم** » [٧] أما الجرائم الفردية فلا يؤخذ بها إلا صاحبها دون أن يتعدى ذلك إلى الجماعة كلها « **إلا من ظلم وأثم فإنه لا**

---

(١) م . ن ، فقرة (٣٧) ، (ص٦٢) .

(٢) م . ن ، فقرة (٣٨) ، (ص٦٢) .

(٣) أبو عبيد ، الأموال (ص٢٩٦) .

(٤) البيهقي ، السنن (جـ٩ ، ص٣٧) .

(٥) م . ن (جـ٩ ، ص٣٧) .

(٦) الحاكم ، المستدرك (جـ٢ ، ص١٢٢) ، قال عنه : « صحيح ولم يخرجاه » أي البخاري ومسلم .

(٧) مجموعة الوثائق ، فقرة (٣١) ، (ص٦١) .

يوتغ إلَّا نفسه وأهل بيته » [١] .

ثم عددت الصحيفة أحياء اليهود وأن لهم جميعًا هذه الامتيازات التي أعطيت ليهود بني عوف « **وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ...** » [٢] أما الإطار السياسي العام الذي يجمع أهل الصحيفة والذي ينتظر منه أن يكون مقدمة لانضمام اليهود إلى أمة الإسلام ، وهو أمل راود النبي ﷺ – على ما يبدو – في السنة الأولى لمقدمه إلى يثرب .

ويلاحظ أن المسلمين اعتبروا كتلة واحدة تربطهم رابطة الإسلام ، أما اليهود فلم تعاملهم الصحيفة على أنهم كتلة واحدة بل ذكرت قبائلهم « **بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جُشَم وبني الأوس وبني ثعلبة وبني الشطيبة** » [٣] وموالي هؤلاء تبع لهم في الحكم « **وإن بطانة يهود كأنفسهم** » [٤] ذكرهم متفرقين ، ولعل ذلك كان يقصد منه أن يتمكن النبي ﷺ من معاقبة كل قبيلة تنقض العهد دون أن يأخذ قبيلة بجريرة الأخرى ، وهذا ظهر جليًّا في الخطوات التالية التي قام بها النبي ﷺ تجاه اليهود ويبدو أن مادة « **على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى** » [٥] لم تتكرر هنا مع قبائل اليهود ؛ لأن الصحيفة تركت لليهود إدارة شؤونهم الخاصة فيرجعوا إلى الرسول ﷺ في الأمور ذات الإطار العام ويرجعوا إلى أحبارهم في المسائل الشخصية والدينية ، ولكن كان بإمكان اليهود أن يلجؤوا إلى الرسول ليحكم بينهم ، ويفهم ذلك من الآية القرآنية ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ ﴾ [المائدة : ٤٢] ولا شك في أن احتكامهم إلى النبي ﷺ كان متأخرًا ؛ لأن هذه الآية من سورة المائدة وهي نزلت في فترة متأخرة من حياة الرسول ﷺ في المدينة [٦] .

وحددت الصحيفة حرية أهل المدينة في الخروج منها ، فلابد أن يكون ذلك بعد أخذ الإذن من النبي ﷺ ، وبذلك ضيق على اليهود والمشركين والمنافقين ولاسيما الاتصال بأعدائه المكيين ، وأنه لا يجوز لأحد أن يعلن الحرب أو السلم إلا بإذن قيادة المدينة « **لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ** » [٧] وكانت المادة الأخرى قد ضيقت على

(١) م . ن ، فقرة (٣١) ، (ص٦١) . يوتغ : يهلك نفسه . قال : وتغ الرجل وأوتغه غيره أي : أهلكه انظر : السهيلي ، الروض الأنف (جـ٤ ، ص٣٩٥) .

(٢) حميد اللّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (٢٤ – ٣٥) ، (ص٦١) .

(٣) وردت كذلك ، بني الشطنة . انظر ، إسرائيل ولنفستون ، تاريخ اليهود (ص١١٤) .

(٤) حميد اللّه ، مجموعة الوثائق ، فقره (٢٤ – ٣٥) ، (ص٦١) .

(٥) م . ن ، فقرة (٣ – ١١) ، (ص٥٩ ، ٦٠) . (٦) العمري ، المجتمع المدني (ص١٢٨) .

(٧) حميد اللّه ، مجموعة الوثائق ، فقرة (٣٦) ، (ص٦١) .

هؤلاء « **وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها** » [١] وبذلك أمَّن النبي ﷺ كل السبل لحماية المدينة وسكانها .

واعتبرت المدينة حرمًا فنصت الصحيفة « **وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها** » [٢] والحرم لا يحل انتهاكه وبذلك أصبحت المدينة بحدودها - وهي يومئذ تمثل دولة الإسلام - محرمة كما هي مكة .

ثم جعلت الصحيفة النبي ﷺ الرئيس الأعلى للدولة فهو يفصل في الخصومات الداخلية « **وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى اللَّه ﷻ وإلى محمد ﷺ ، وإن اللَّه على أتقى ما في هذه الصحيفة** » [٣] .

ويلاحظ أن الصحيفة ختمت بتأكيدات أخرى وجب الالتزام بها « **وأن اللَّه على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره** » [٤] ، ثم أمَّن أهل الصحيفة جميعًا « **وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن إلا من ظلم وأثم ، وأن اللَّه جار لمن بر واتّقى ، ومحمد رسول اللَّه ﷺ** » [٥] .

ويفترض أن يكون زمن انتهاء مفعول هذه الصحيفة هو بعد غزوة الخندق (سنة٥هـ) إذ بعدها أخرج الرسول ﷺ آخر قبائل اليهود بني قريظة (سنة٥هـ) فلم يعد معنى للحلف مع اليهود ، كما أن صلح الحديبية (سنة ٧هـ) فتح الباب أمام الرسول ﷺ للتحالف مع من شاء من القبائل [٦] ، وبعد فتح مكة (سنة ٨هـ) توسعت الدولة لتشمل الجزيرة العربية كاملة وهذا يتطلب آخر عامًا لا تنظيمًا إقليميًّا محليًّا .

ويتضح مما سبق أن إدارة الرسول ﷺ في المدينة كانت تهدف إلى تكوين أمة مترابطة ، للأفراد فيها حرية العمل وإبداء الرأي ، وللسلطة المركزية حق إدارة الأمن والقضاء والحرب والسلم على أن تكون التقوى والأخلاق الفاضلة أساس أعمالهم وتصرفاتهم .

وبهذا النص المكتوب استُكملت عناصر تكوين الدولة وَفْقَ مفهوم الدولة الحديث القائم على أركان ثلاثة هي : الأمة والأرض والسيادة الداخلية والخارجية على أرضها وشعبها .

---

(١) م . ن ، فقرة (٤٣) ، (ص٦٢) .
(٢) م . ن ، فقرة (٣٩ - ٤١) ، (ص٦٢) .
(٣) م . ن ، فقرة (٤٢ ، ٦٢) .
(٤) م . ن ، فقرة (٤٢) ، (ص٦٢) .
(٥) م . ن ، فقرة (٤٧) ، (ص٦٢) .
(٦) الدوري ، نظم (ص ٢٢ ، ٢٣) .